وجوه البر العصرية

للإحسانات والأوقاف الخيرية

لحضرة صاحب السعادة علي جمال الدين باشا

في مصر من الحبوس والأوقاف الخيرية ما يؤلف ثروة كبيرة ذات أرقام ضخمة ، يشهد المصريين بتأصل روح البر في نفوسهم وتغلغل الإحسان في دمائهم ، فأينما سار الإنسان يجد "وقفا" على نوع من أنواع البر ، إما أطيانا أو دورا أو ريع هذه الأطيان والدور ، وفي معظم شوارع القاهرة وحاراتها مساجد وزوايا وتكايا و"سبل" للشرب ومكاتب ومعاهد ، ينفق عليها من ريع هذه الأوقاف .

وقد كانت وجوه البر التي رصدت لها هذه الأوقاف قديما تلبي حاجة ذلك العصر وتتفق مع الروح العامة المتفشية فيه . أما اليوم فالكثير منها لا يتفق مع حاجات العصر الحاضر ، وقد نشأت وجوه للبر جديدة ، ونشأت احتياجات عصرية ، مع تطور الزمن وتنوع الحياة .

"فالسبيل" الذي يمد المارة من المشاة بماء الشرب ، كان طبيعيا ومفهوما أيام كان الماء ينقل من النيل على ظهور الجمال والحمير أو ظهور "السقائين" فكان المارة الذين يدهمهم عطش في الطرقات في حاجة إلى ماء مباح يستقون منه ، ويروون الظمأ من حر الهجير ، أما اليوم فإن شركة المياه قد أوصلت الماء إلى كل مكان ، ولم تعد هناك حاجة إلى ماء الطريق إذ أن الترام ووسائل المواصلات الأخرى تنقل الناس من جهة إلى جهة في مدة وجيزة ولا تحوجهم أن يذهبوا إلى "السبيل" .

ومثل ماء "السبيل" كثير من وجوه البر القديمة لم تعد في حاجة إليها ، أو أصبح الموجود منها كافيا للحاجة بل زائدا عنها في بعض الأحيان .

وليس لنا أن نلوم أصحاب الأوقاف القدامى إذا قرأنا الآن حجج أوقافهم فرأينا فيها من وجوه الإنفاق مالا وجود له في عصرنا أو ما لا حاجة بنا إليه ، فقد كانوا يلبون حاجة زمانهم ، ولكن اللوم واقع علينا إذا كانت هناك نواح خيرية لم يلب حاجتها الواقفون في هذا الزمان والمتبرعون منا بالإحسان ، والذين ينشئون الأوقاف في أيامنا هذه فيجارون فيها

الأحداث إنما يعيشون بعقلية متحجرة. ومن الواجب أن تحث وزارة الأوقاف دعاتها قوية بوساطة خطبائها ووعاظها تحث على تلبية وجوه البر العصرية . وتحويل مصارف الوقف إلى ما يناسب الزمن الذى نعيش فيه .

ومن أول وجوه البر العصرية ما يساعد على التعليم ، فإن ميزانية الدولة لا تتسع بكل الأعباء المطلوبة تيسيره على كل راغب فيه، والمساعدة على التعليم تتناول شؤونا كثيرة :

منها إنشاء المدارس والمعاهد المجانية أو المخففة التكاليف ، أو التى تسد نقصا فى التعليم لا تستطيع الميزانية سده . وقد كان هذا هو الأساس الذى قامت عليه الجامعة المصرية عند إنشائها ، وكان اتجاه الواقفين والمتبرعين هذا بالأطيان والأموال دليلا على التطور الفكرى والتوجه بالخير إلى أفضل وجوهه .

ومن المناسب أن نحيى هنا من كانوا فى مقدمة الواقفين والمتبرعين للجامعة المصرية ، إذ كانوا أول من تنبه فى العصر الحديث لتلبية مطالب الجيل .

فقد تبرعت سمو الأميرة فاطمة هانم كريمة المغفور له اسماعيل باشا بستة أفدنة من أراضى البناء بالدقى لبناء دار الجامعة عليها ووقفت ستمائة فدان من أجود أطيانها ليصرف ريعها على الجامعة، وذلك غير ثمن جواهرها الثمينة التى تبلغ قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه .

ووقف سمو الأمير يوسف كمال مائة وخمسة وعشرين فدانا من أطيانه بالقليوبية ، ومعها ثلثمائة جنيه للمساعدة فى نفقات إصلاح تلك الأطيان .

وتقدم أحمد بك الشريف بمائة فدان من أصيانه فى البحيرة ، وحسن بك زايد بخمسين فدانا فى المنوفية ، ومصطفى كامل الغمرورى بك بستة أفدنة .

فكانت هذه التبرعات هى النواة التى قام عليها أكبر صرح للثقافة العالية فى مصر فى وقت لم تكن الدولة لظروف سياسية خاصة تستطيع أن تنهض بهذا الواجب المقدس .

وكذلك أنشأ سمو الأمير يوسف كمال مدرسة الفنون الجميلة من أمواله وأوقافه لتسد نقصا فى الناحية الفنية لم يكن من اللائق أن يبقى بعد نهضة البلاد ، وكان فى هذا نموذجا طيبا لرقى التفكير وفى التوجه بالبر إلى أحسن وجوهه .

والمساعدة على التعليم تشمل رصد الأوقاف لإرسال البعوث الخارجية فى العلوم التى تحتاج إليها مصر فى نهضتها ، ومن الأمثلة الطيبة هذا الاتجاه "البعثة الفهمية" وهى أثر باق مفيد للأفراد والمجموع .

ولا يقل عن إرسال بعثات تيسير السبيل للطلاب الذين يتعلمون فى مصر ذاتها ممن تحسين مواردهم عن إكمال التعليم . والجامعة والمدارس المختلفة تضطر فى ظروف يقيدها بقانون فيها بقيوده أن تطرد من رحمة التعليم فى كل عام عددا من الطلاب لعجزهم عن داء المصروفات المقررة ، فحبذا لو كان فى الأوقاف والإحسانات ما يكفل لهؤلاء إتمام عليمهم بعد ما قضوا فيه شطرا عزيزا من العمر لا يستطيعون تعويضه .

وهناك مشكلة فى حياة بعض الطلاب الذين يفدون إلى العاصمة فى طلب العلم ، ثم لا يجدون المأوى المناسب والسكن المريح والغذاء الوافى والرعاية المطلوبة ، فلم لا يكون من بين الأوقاف ما يمكن " بيوت الطلبة " بحيث يجد الطالب سكنا طيبا وغذاء مناسبا ومشرفا يأخذ من ثمنه من الموقف وينظم حياة الطلاب فى هذه البيوت تحت إشراف الجامعة أو ورد المعارف ، وبذلك نخدم الطلاب أجمل خدمة فى أبدانهم وأخلاقهم وفى تحصيلهم علمى وتوجيههم الاجتماعى .

وليس هذا بالأمر الجديد ، فأروقة الأزهر وأوقافها الخاصة بها قائمة على هذا الأساس ، الذى لا يحتاج إلا بعض التحوير حتى يصبح وافيا بحاجة العصر ومطالب الجيل ، ولا يجوز أن تقصر عقولنا عن عقول القرن السادس وما يليه .

ولا تجاوزنا ناحية تعليم وحدنا ناحية المستشفيات ، ونسبتها فى مصر بالقياس للمرضى فيه ضئيلة جدا ، ومهما تكن الدولة لا تسد الحاجة إلا بعد أجيال إذا نحن اقتصرنا على ما تنشئه من المستشفيات الحكومية .

ومن حسن الحظ أن استطاعت جمعية المواساة كما استطاعت الجمعية الخيرية أن تنشئ مستشفاها عن طريق أوراق اليصيب ، ولكن الأمة فى حاجة إلى عشرات من هذه المستشفيات تنبث فى كل مدينة وتنقذ اليائسين من المرضى وترد عليهم الصحة والعافية وتعيدهم للأمة أعضاء سليمة لا عالة عليها كما هم الآن .

وهذه المستشفيات فى حاجة بعد إنشائها إلى مال ينفق عليها ، وتضمن به إدارة أعمالها وتوفير أجهزتها وأدويتها وأدواتها ، فلم لا تكون هناك أوقاف وإحسانات تفى بذلك كله ، كما وقفت أوقاف الأجيال الماضية بالتكايا والزوايا والسبل والمقارئ ؟

وبعض الأمراض تعجز أصحابها عن الكسب وتعرض المخالطين لهم من الزوجات والأبناء لعدوى ، كمرض السل مثلا ، وهؤلاء المرضى المساكين يظلون يعملون تحت ضغط الحاجة مادام هذا المرض لا يلزمهم الفراش ، مع أن العمل فيه عدو الشفاء ، ولو وجدوا براً بهم وتوفيرا لمزاد لهم ولأبنائهم لاعتكفوا حتى يبرءوا وترد عليهم عافيتهم المسلوبة .

ولا أطيل الحديث عن حاجة الأمة إلى الملاجئ المختلفة : ملاجئ الأطفال ، وملاجئ العجزة ، فطرقات القاهرة وسواها تعج بمن يهيمون على وجوههم فيها أشباحا هزيلة قذرة مريضة ، يمدون أيديهم للسؤال ويعرضون جوارحهم وأوصالهم المشوهة ، وينقلون الأمراض ويسرقون النقود ، ويشوهون كل معنى من معانى الحياة والجمال .

هؤلاء لاتنهض موارد الدولة بكفالتهم ، وهم أولى وأحق بالرعاية فى هذا الإبان من "تماثيل" التكايا وقعيدى المقارئ ، فهم أجدر برصد الإحسانات ووقف الأوقاف عليهم منذ الآن .

* * *

وينضم إلى هؤلاء المشردين فى الحاجة إلى الرعاية والكفالة أولئك الذين تلفظهم إصلاحيات الأحداث وإصلاحيات الرجال ، والسجون عامة ، حيث يجدون أنفسهم بعد أن تلفظهم السجون فى مجتمع يتنكر لهم ، ولا يفسح لهم منفذا لحياة الشريفة ، حتى إذا صاقت بهم السبل عادوا إلى الجريمة ليعودوا إلى السجن من جديد ، بعد أن يجدوا أن السجن هو المكان الوحيد الذى يفتح أبوابه لهم ويطعمهم ويكسوهم !

ولو وجد هؤلاء المنكوبون بيوتا تؤويهم وجماعات تتولاهم بالعطف والرعاية والارشاد والتطهير ، ثم تقدمهم للمجتمع أطهارا وتضمنهم وتبقى على صلة بهم حتى لايزيغوا ولايحيدوا عن الطريق المستقيم ، لو وجدوا مثل هذه الرعاية لكسبوا أنفسهم ولكسبهم المجتمع ولكان هذا العمل قربة القرب إلى الله ، وأفضل وجوه البر فى الدنيا والآخرة .

* * *

واللواتى ينبذهن المجتمع خطيئة لايقل عددهن أو ظروفهن عمن ينبذهم المجتمع للجريمة ، فمنهن نسوة بائسات شقيات ، زلت أقدامهن مرة فلم يعد لهن مأوى إلا فى أحضان الرذيلة . ومهما رغبن بعد ذلك فى الحياة الطاهرة ، فلن يجدن من يأخذ بيدهن ومن يكفلهن ويرد عليهن الثوب الأبيض الطاهر الذى نضته عنهن يد الحياة القاسية ، أو يد الخطيئة الملوثة .

لو وجد هؤلاء الساقطات ومن هن على وشك السقوط يدا حانية وقلبا رحيما وملجأ يحميهن من اللقمة المغذية ، والنصيحة المرشدة ، والمجتمع الحنيف لعادت الكثيرات منهن إلى حياة الطهر والفضيلة .

وذلك لا يكون إلا بالمال ، ولا يكون إلا بالدور التى ينفق عليها من الأوقاف المحبوسة أو الإحسانات المبذولة . وفى ذلك أجر من يرد الرذيلة فضيلة ، ومن ينقذ البائسة المضطرة ، ومن يحفظ على الأمة حياءها ونقاوة ضميرها .

ولولا أن أخشى الإغراق فى الخيال لاقترحت أن يكون من بين وجوه إنفاق الخيرات ما تؤهل به الفقيرات اليتيمات للزواج ، وما يدفع منه الصداق معونة للشبان العزاب الذين لا يجدون ما ينفقون وهم راغبون فى إكمال نصف دينهم ، وفى منح الأمة أيادى عاملة وأسرا شريفة ومجتمعا نظيفا ؛ فذلك وجه من وجوه البر العصرية التى تحتاج إليها الأسرة والمجتمع والتى تحل جانبا من مشكلة حديثة تواجهنا ولا نملك لها علاجا إلا بمثل هذه الوسيلة .

ولولا أن أخشى الإسراف فى الخيال لاقترحت أن يكون من بين وجوه الإنفاق أن يرصد جانب من الأوقاف لتخفيض نفقات الحياة على الفقراء فى الأزمات كالأزمة التى نحن فيها الآن بحيث يشترى بهذا المال غذاء وكساء فيوزع على الفقراء لا بالمجان ولكن بأسعار رخيصة نوعا تسهل لهم الحياة .

* * *

تلك بعض الوجوه العصرية للبر لا كلها ، وهى تبين مدى حاجتنا إلى التجديد والتنويع فقد شبعنا تكايا ومقارئ وزوايا ؛ وأصبحنا نعيش فى عصر جديد لا بد له من بر جديد ، وعلينا أن نبث مثل هذه الأفكار فى الأوساط كلها مستعينين بالدعوة الدينية ، فالدين ليس جامدا ولا قاصرا ، ولكننا نحن الجامدون المقصرون ما

على جمال الدين